الباب الأول

الفوز

فى ضوء القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

مقدمات حول الموضوع

المطلب الأول

تعريف الفوز فى اللغة والاصطلاح :

قال ابن منظور : فوز: الفوز النجاء والظفر بالأمنية والخير [١].

وقال الراغب : فوز : الفوز : الظفر بالخير مع حصول السلامة [٢].

وقال ابن فارس رحمه الله :

(فوز) الفاء والواو والزاء كلمتان متضادتان، فالأولى النجاة والأخرى الهلكة ، فالأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر، إذا ذهب به وخلص، ويقال لمن ظفر بخير وذهب به. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران: ١٨٥] ، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات، ثم اختلف فى المفازة، فقال قوم: سميت بذلك تفاؤلا لراكبها بالسلامة والنجاة، والمفازة: المنجاة. قال الله عز وعلا: ﴿ بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ، وقال آخرون: هى من الكلمة الثانية، فوز، إذا هلك، ثم يقال: فوز الرجل، إذا ركب المفازة[٣].

وقال الفيروزآبادى –رحمه الله – الفوز: الظفر، والفوز: النجاة. يقال:

---

(١) لسان العرب : ٥/ ٣٩٢.

(٢) مفردات الراغب :٦٤٧ .

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس :١/ ٣٦٥.

طوبى لمن فاز بالثواب، وفاز من العقاب، أى: ظفر ونجا، وهو بمفازة من العذاب، أى: بمنجاة منه، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وسمى الفلاة مفازة على سبيل التفاؤل، وفاز سهمه، وخرج لهم سهم فائز: إذا غلب، وفاز بفائزة، أى: شيء يسير يصيب به الفوز، قال تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام] . وفوز الرجل: مات، أى: صار فى مفازة ما بين الدنيا والآخرة، أو بمعنى: أنه نجا من متاعب الدنيا وحبالتها، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النبا] أى: فوزا، أو مكان فوز[١].

الفوز اصطلاحا : حصول الربح ونفى الخسارة[٢].

---

(١) بصائر ذوى التمييز :٥/ ٤٥.

(٢) التفسير المنير :٧/ ١٥٧.

obeikandl.com

المطلب الثاني

الاستعمال القرآنى للفوز ومشتقاتها

وردت «فوز» ومشتقاتها فى القرآن فى تسعة وعشرين موضعا :

فاز	٢
أفوز	١
الفوز	١٦
فوزا	٣
الفائزون	٤
مفازا	١
مفازة	١
مفازتهم	١
جملة	٢٩

obeikandl.com

١٠ مرات فى القرآن المكى .

الآية	ك	رقمها	السورة	نص الآية
١٦	ك	٦	الأنعام	﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾
٦٤	ك	١٠	يونس	﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾
٦٠	ك	٣٧	الصافات	﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾
٩	ك	٤٠	غافر	﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾
٥٧	ك	٤٤	الدخان	﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾
٣٠	ك	٤٥	الجاثية	﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾
١١	ك	٨٥	البروج	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾
١١١	ك	٢٣	المؤمنون	﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾
٣١	ك	٧٨	النبأ	﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾
٦١	ك	٣٩	الزمر	﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

١٩ مرة فى القرآن المدني

الآية	م	رقمها	السورة	نص الآية
١٨٥	م	٣	آل عمران	﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾
٧١	م	٣٣	الأحزاب	﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾
٧٣	م	٤	النساء	﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾
١٣	م	٤	النساء	﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾
١١٩	م	٥	المائدة	﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾
٧٢	م	٩	التوبة	﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾
٨٩	م	٩	التوبة	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾
١٠٠	م	٩	التوبة	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾
١١١	م	٩	التوبة	﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾
١٢	م	٥٧	الحديد	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾
١٢	م	٦١	الصف	﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

الآية	م	رقمها	السورة	نص الآية
٩	م	٦٤	التغابن	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾
٥	م	٤٨	الفتح	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾
٢٠	م	٩	التوبة	﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾
٥٢	م	٢٤	النور	﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾
٢٠	م	٥٩	الحشر	﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾
١٨٨	م	٣	آل عمران	﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

والمتدبر للآيات السابقة يلاحظ الآتى :

١- الإيمان شرط أساسى فى تحقيق الفوز .

٢- أن القرآن المكى عرض قصة الأخدود وثباتهم على الدين حتى الاستشهاد وختم الآية " ذلك الفوز الكبير " ، ولا يوجد لها نظير فى القرآن ، مما يوحى للقلة المؤمنة أن تثبت على الفتنة فى الدين ، وثباتها هذا صورة من صور الفوز ، كما جاء فى سورة البروج .

٣- أن القرآن المكى ربى القلة المؤمنة على الصبر على الإيذاء والاستهزاء الذى كان يمارسه المجرمون ضدهم ، وهذه دعوة للفئة المؤمنة فى كل زمان ومكان بالصبر على ما تلاقيه فى سبيل الله.

٤- أن الله سبحانه وتعالى عرض للفئة المؤمنة صورة من نعيم أهل الجنة وأنهم يتسامرون ويتلذذون فى الجنة بذكر حكاياتهم فى الماضى تشويقا وتحفيزا للثبات والصبر على الدين، كما جاء فى سورة الصافات .

٥- أن القرآن نوع من أساليب المبالغة فى التأكيد على الفوز العظيم فى أكثر من سورة مثل :﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ،﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

٦- أن من أسباب الفوز طاعة الله والرسول ، مما يوحى بأهمية الطاعة للقيادة الإسلامية الربانية التى تسير على منهج الله ، وسيرة القائد الأول ﷺ ، وضرورة الحفاظ على مكانتها ببث الثقة بينها وبين قاعدتها .

٧- أن من حكم الله وحكمته نفى التساوى بين أصحاب النار وأصحاب الجنة فى الدنيا والآخرة ، فأصحاب الجنة هم الفائزون .

٨- أن فهم المنافق للفوز هو تحصيل الغنيمة والعودة من الجهاد سالما ، أما فهم المؤمن للفوز فهو تحقيق النصر والتمكين للدين ، أو الاستشهاد فى سبيل الله رب العالمين.

٩- وصف الفوز فى القرآن بالعظيم(١٣ مرة) والكبير(مرة واحدة) والمبين(مرتين) ،فالله سبحانه وتعالى ، يذكر الفوز المبين فى أمرين:

١- إما فى صرف العذاب.

٢- أو الإدخال فى رحمته .

ولم يذكر إدخال الجنة قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ [الأنعام] ،

صرف العذاب لم يذكر دخول الجنة، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الجاثية] .

والفوز الكبير وردت فى موطن واحد فى سورة البروج ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [البروج] .

والفوز العظيم يزيد على ذلك فى الجزاء إما بذكر الخلود أو ذكر المساكن الطيبة وما إلى ذلك، على سبيل المثال ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة] .

هناك فقط قال﴿ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البروج : ١١] هنا قال فيها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [المائدة: ١١٩] ، زاد عليها هنا فقال عظيم. ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة] ، زاد على ما ذكره فى البروج: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر] ، عندما ذكر أوسع من الكبير قال: العظيم، فهى مرتبة هكذا المبين أعلى منها الكبير وأعلى منها العظيم. كل بحسب الدرجات وما جاء معه من أوصاف النعيم.

المبحث الثاني

أسلوب القرآن فى التشويق للفوز

عرض القرآن نعيم أهل الجنة فى صورة قصة يقصها أحدهم على إخوانه ، والقصص محبب للنفس ، مشوق لها ، محفز للهمم .

فذكر ﷻ نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة ،وذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث، عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا فى المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ [الصافات] فى الدنيا، ينكر البعث، ويلومنى على تصديقى به، ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝ ﴾[الصافات] .

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذى فى غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا، فصرنا ترابا وعظاما، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟

فيقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنا مصدقا، وهو ما زال مكذبا منكرا للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون، من النعيم، الذى أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك، أنه قد وصل إلى العذاب.

والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضا، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعا له، للاطلاع على قرينه،فالمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به.

لذة أهل العلم : ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم، والبحث عنه، فوق اللذات الجارية فى أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية فى الجنة ما لا يمكن التعبير عنه[١].

التشويق للنعيم فى الجنة:

لما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل فقال:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات] الذى حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الصافات] فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضى على الحازم، وقت من أوقاته، وهو غير مشتغل بالعمل، الذى يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الصافات] [٢].

وقد أبدع فى تصوير حسن حالهم بحصر الفوز فيه حتى كان كل فوز

(١، ٢) تفسير الطبرى : ٢١/ ٥١.

بالنسبة إليه ليس بفوز ، فالحصر للمبالغة لعدم الاعتداد بغيره، ثم ألحقوا ذلك الحصر بوصفه بالعظيم[١].

(١) تفسير التحرير والتنوير :١٢/ ١١٦.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

الفوز فى فهم المؤمنين والمنافقين

الفوز العظيم فى فهم المنافق :

قال تعالى :﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [النساء] ، أي: بأن يضرب لى بسهم معهم فأحصل عليه ،وهو أكبر قصده وغاية مراده [١]، فيتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد فى غير ذلك، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التى من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون فى جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها، ويسعون جميعا فى كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذى يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة[٢].

«إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب ، هى التى يقولون عنها : ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [النساء]، والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة؛ بل مطلوب منه أن يرجوه من الله . إن المؤمن لا يتمنى البلاء، بل يسأل الله العافية [٣] ولكنه إذا ندب للجهاد خرج - غير متثاقل - خرج يسأل الله إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة . . وكلاهما فضل من الله؛ وكلاهما فوز عظيم، فيقسم له الله الشهادة، فإذا هو راض بما قسم الله؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله، ويقسم له

---

(١) تفسير ابن كثير :٢/ ٣٥٨.

(٢) تفسير السعدى : ١٨٦.

(٣) قال رسول الله ﷺ «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية».انظر: صحيح البخارى (٣٢٧٦).

الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصره. لا لمجرد النجاة»[١].

مفهوم الفوز عند المؤمنين :

عن أنس ﷺ قال:بعث النبى ﷺ أقواما من بنى سليم إلى بنى عامر فى سبعين، فلما قدموا قال لهم خالى: أتقدمكم فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم منى قريبا، فتقدم فأمنوه فبينما يحدثهم عن النبى ﷺ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة[٢]، ولما سأل القاتل بما فاز ؟ قالوا: بالجنة ،و قيل: بالشهادة .

نفى التسوية بين المختلفين من حكمته سبحانه :

قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر].

قال ابن القيم – رحمه الله : «نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين فى الحكم، فأخبر أن هذا حكم باطل فى الفطر، والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه»[٣].

فهم لا يستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا ولا سلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرا ، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا فى طريق ، ولا يلتقيان أبدا فى سمة، ولا يلتقيان أبدا فى خطة ، ولا يلتقيان أبدا فى سياسة ، ولا يلتقيان أبدا فى صف واحد فى دنيا ولا آخرة . .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٢/ ١٨١.
(٢) صحيح البخارى (٢٥٩١).
(٣) إعلام الموقعين (ج١/ ١٣٢).

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر] يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير[1].

(١) فى ظلال القرآن : ٧/ ١٧٠.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الرابع

أسباب الفوز

أولا : الإيمان والعمل الصالح :

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾[الجاثية].

فالإيمان، والعمل الصالح قاعدتا الثواب والجزاء فى القرآن .

والإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده هو يشمل كل عمل يبدأ باسم الله وعلى منهج رسول الله .

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بنى على موج الماء.

وقد ذكر الله فى القرآن الإيمان والعمل الصالح فى ستة وخمسين موضعا وأخبر الله تبارك وتعالى أنه لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده ، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم ، وبما وفقهم له من الإيمان به ، والعمل الصالح، فقد رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئا كثيرا.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل فى أمة فهى الوارثة للأرض كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[الأنبياء] .

الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

ثانيا : الثبات على الدين حتى الاستشهاد :

قال تعال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [البروج]. " إن الذين أقروا بتوحيد الله، وهم هؤلاء القوم الذين حرقهم أصحاب الأخدود وغيرهم من سائر أهل التوحيد، وعملوا بطاعة الله، وأتمروا لأمره، وانتهوا عما نهاهم عنه، لهم فى الآخرة عند الله بساتين تجرى من تحتها الأنهار، والخمر، واللبن، والعسل،وهذا هو الظفر الكبير بما طلبوا والتمسوا بإيمانهم بالله فى الدنيا، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيه منهم[1].

ووصف الفوز بالكبير – وليس فى القرآن نظيره – ؛ لأنه لا فوز يشبهه ، والذى يصغر عنده الفوز بالدنيا و ما فيها من الرغائب ؛ ولأنه تحققت لهم النجاة العظيمة من الفتنة فى الدين ، وعذاب يوم الدين ، ورضوان رب العالمين .

وقال سيد قطب – رحمه الله: " تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة ، روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض ، فقد كان مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم ، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد

(١) تفسير الطبرى :٢٤/ ٣٤٤.

سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار؟[١]

ويقول أيضا - رحمه الله: " وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمه ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال [٢].

وقد وردت قصة الأخدود فى صحيح مسلم : عن صهيب:أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر

---

(١) فى ظلال القرآن :٨/ ٢.

(٢) فى ظلال القرآن :٦/ ٢٦٣.

الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فقال: إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك قال: ربى قال: ولك رب غيرى قال: ربى وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام، فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل: له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك قال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك قال: كفانيهم الله فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم

وضع السهم فى كبد القوس ثم قال باسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات فقال: الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبرى فإنك على الحق[1].

وهنا يثار تساؤل : أين وعد الله لأهل الإيمان بالنصر فى الحياة الدنيا؟ وفيهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا ، و فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى فى الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد ؟

يقول سيد قطب –رحمه الله : الناس يقيسون بظواهر الأمور ، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة فى التقدير .إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان ، وهى مقاييس بشرية صغيرة ، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية فى الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان فى هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك ، وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتى خارج وجودها ، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها.

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم ، ولكن صور النصر شتى ، وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة

(١) صحيح مسلم : قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب ، رقم(٥٣٢٧).

عند النظرة القصيرة.

إبراهيم عليه السلام وهو يلقى فى النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . . أكان فى موقف نصر أم فى موقف هزيمة؟

ما من شك فى منطق العقيدة أنه كان فى قمة النصر وهو يلقى فى النار ، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار[١].

ثالثا : الصبر على الإيذاء والاستهزاء :

قال تعالى :﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[المؤمنون] .

أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار[٢].

وهذا الصبر من أعسر أنواع الصبر ، فهم صبروا على السخرية والإيذاء ، كما يقع دائما للمستقيمين على دينهم فى المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة فى كل زمان ومكان .

رابعا : طاعة الله والرسول وقول السداد :

قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

[الأحزاب] .

أرشدهم الله إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما

---

(١) فى ظلال القرآن :٦/ ٢٦٣.

(٢) تفسير ابن كثير : ٥/ ٤٩٩.

الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق، لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولا سديدا ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال، فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا فى الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب[١] ، ومن يفعل ذلك ، فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله[٢]، وذلك أنه يجار من النار، ويصير إلى النعيم المقيم[٣].

وجعله عظيما من وجهين:

أحدهما : أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لا يقال: فاز فوزا عظيما ؛ لأن العذاب الذى نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتا كثيرا.

والثانى : أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي[٤] .

ويشمل القول السديد :

- ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء .
- وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء ، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد ، ورواية حديث الرسول ﷺ من القول السديد ، وفى الحديث : « نضر الله امرا سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[٥] .
- وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه .

---

(١) تفسير الرازى :١٢/ ٣٨٧.
(٢) تفسير الطبرى :٢٠/ ٣٣٦.
(٣) تفسير ابن كثير :٦/ ٤٨٧.
(٤) تفسير الرازى :١٢/ ٣٨٧.
(٥) سنن الترمذى : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، رقم (٢٥٨٢).

- ومن القول السديد: تمجيد الله، والثناء عليه مثل: التسبيح .

- ومن القول السديد: الأذان، والإقامة قال تعالى :﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر].

- ومن القول السديد: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر[1] .

أثر القول السديد فى صلاح المجتمع :

- بالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون فى التخلق بها .

- وبالقول السديد يتم إرشاد الناس إلى الصلاح.

- وبالقول السديد يمتنع الناس عن المعاصى .

من فوائد الآية :

١- مجيء الأمر بالتقوى والأمر السديد عد النهى عن إيذاء الرسول يوحى أننا مطالبون بشيئين :

- **ترك الكلام المؤذى .**

- **وقول السديد .**

٢- ومجيء الأمر بطاعة الله والرسول قبل الأمر بحمل الأمانة توحى أن الطاعة المطلوبة هنا هى حمل أمانة التكليف والقيام بها حق القيام .

---

(١) التحرير والتنوير :١١/ ٣٣٥.

من صور الفوز فى الدنيا : الراحة والطمأنينة :

الطاعة بذاتها فوز عظيم ، فهى استقامة على نهج الله ، والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة ، والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح سعادة بذاته ، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه ، وليس الذى يسير فى الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذى يسير فى الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها؛ وهى الفوز العظيم ، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم ، أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة ، فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولعله فضل نظر الله فيه إلى ضعف هذا الإنسان ، وإلى ضخامة التبعة التى يحملها على عاتقه ، وإلى حمله للأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال ، والتى أخذها على عاتقه ، وتعهد بحملها وحده ، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد[١].

وفى طاعة الله والرسول فى تنفيذ أحكامه فى الميراث والقسمة ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء] عن قتادة قوله:«تلك حدود الله»، التى حد لخلقه، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة، فانتهوا إليها ولا تعدوها إلى غيرها[٢].

---

(١) فى ظلال القرآن : ٦/ ١٠٢.

(٢) تفسير الطبرى :٨/ ٧١.

أي: هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هى حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[النساء: ١٣] أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضا بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته[١].

وهنا يثار تساؤل : لماذا تترتب كل هذه النتائج الضخمة على طاعة أو معصية فى تشريع جزئى كتشريع الميراث؛ وفى جزئية من هذا التشريع وحد من حدوده؟

يقول سيد قطب - رحمه الله :

إن الأمر فى دين الله كله هو : لمن الألوهية فى هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس؟

وعلى الإجابة عن هذا السؤال فى صيغتيه هاتين يترتب كل شيء فى أمر هذا الدين ، وكل شيء فى أمر الناس أجمعين، لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟

لله وحده - بلا شريك من خلقه - فهو الإيمان إذن وهو الإسلام وهو الدين ، لشركاء من خلقه معه أو لشركاء من خلقه دونه فهو الشرك إذن أو الكفر المبين .فأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده فهى الدينونة من العباد لله وحده ، وهى العبودية من الناس لله وحده ، وهى الطاعة من البشر لله وحده وهى الأتباع لمنهج الله وحده بلا شريك، فالله وحده هو الذى يختار للناس منهج حياتهم ، والله وحده هو الذى يسن للناس شرائعهم ، والله وحده هو الذى يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم ،

(١) تفسير ابن كثير :٢/ ٢٣٢.

وليس لغيره - أفرادا أو جماعات - شيء من هذا الحق إلا بالارتكان إلى شريعة الله ؛ لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية ، ومظهرها البارز المحدد لخصائصها المميزة ، وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله - شركة مع الله أو أصالة من دونه! - فهى الدينونة من العباد لغير الله وهى العبودية من الناس لغير الله ، وهى الطاعة من البشر لغير الله ، وذلك بالاتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التى يضعها ناس من البشر لا يستندون فى وضعها إلى كتاب الله وسلطانه؛ إنما يستندون إلى أسناد أخرى يستمدون منها السلطان . . ومن ثم فلا دين ولا إيمان ولا إسلام ، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان.

هذا هو الأمر فى جملته وفى حقيقته . . ومن ثم يستوى أن يكون الخروج على حدود الله فى أمر واحد أو فى الشريعة كلها . . لأن الأمر الواحد هو الدين - على ذلك المعنى - والشريعة كلها هى الدين . . فالعبرة بالقاعدة التى تستند إليها أوضاع الناس . . أهى إخلاص الألوهية والربوبية لله - بكل خصائصها - أو إشراك أحد من خلقه معه ، أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض ، مهما ادعوا لأنفسهم من الدخول فى الدين! ومهما رددت ألسنتهم - دون واقعهم - أنهم مسلمون.

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى يشير إليها هذا التعقيب الذى يربط بين توزيع أنصبة من التركة على الورثة وبين طاعة الله ورسوله أو معصية الله ورسوله ، وبين جنة تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها؛ ونار خالدة وعذاب مهين [1].

---

(١) فى ظلال القرآن : ٢/ ٦٦.

خامسا : تقوى الله والنظر فيما قدمت النفس لغد:

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠ ﴾ [الحشر] .

والفوز العظيم : ثمرة الإيمان الحق ، والتقوى العامة فى حقوق الله وحقوق الخلق[1].

أمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، فى جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التى تنفعهم أو تضرهم فى يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا فى كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التى توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد[2].

قال سيد قطب – رحمه الله : والتقوى حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله فى كل حالة ، خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها ، وعين الله على كل قلب فى كل لحظة ، فمتى يأمن ألا يراه؟!

﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر : ١٨] فهو معنى: يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد ببصره فى سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته ، لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة . . وهذا

---

(١) تفسير المنار : ١١/ ٣٤٢.

(٢) تفسير السعدى : ٨٥٣.

التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد ، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا، ونصيبه من البر ضئيلا؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا ، ولا يكف عن النظر والتقليب [١] .

سادسا : الصدق :

قال تعالى :﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة] . أى :قال الله تعالى : إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقهم فى إيمانهم وشهاداتهم ، وفى سائر أقوالهم وأحوالهم ، والإشارة فى قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ إلى كل من النعيمين الجثمانى والروحانى اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة [٢].

وعموم الصادقين يشمل الصدق الصادر فى ذلك اليوم والصادر فى الدنيا ، فنفع كليهما يظهر يومئذ.

- فأما نفع الصادر فى الدنيا : فهو حصول ثوابه .

- وأما نفع الصادر فى الآخرة : فهو برضى الله عن الصادق أو تجنب غضبه على الذى يكذبه.

والمراد بـ﴿ ٱلصَّٰدِقِين ﴾ الذين كان الصدق شعارهم لم يعدلوا عنه .

ومن أول مراتب الصدق : صدق الاعتقاد بألا يعتقدوا ما هو مخالف لما فى نفس الأمر مما قام عليه الدليل العقلى أو الشرعى ، قال الله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) فى ظلال القرآن : ٧/ ١٧٠.

(٢) تفسير المنار :٧/ ٢٢٩.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة] .

ومعنى نفع الصدق صاحبه فى ذلك اليوم: أن ذلك اليوم يوم الحق فالصادق ينتفع فيه بصدقه ؛ لأن الصدق حسن فلا يكون له فى الحق إلا الأثر الحسن ، بخلاف الحال فى عالم الدنيا عالم حصول الحق والباطل فإن الحق قد يجر ضرا لصاحبه بتحريف الناس للحقائق ، أو بمؤاخذته على ما أخبر به بحيث لو لم يخبر به لما اطلع عليه أحد ، وأما ما يترتب عليه من الثواب فى الآخرة فذلك من النفع الحاصل فى يوم القيامة ، وقد ابتلى كعب بن مالك ﷺ فى الصدق ثم رأى حسن مغبته فى الدنيا .

ومعنى نفع الصدق أنه إن كان الخبر عن أمر حسن ارتكبه المخبر فالصدق حسن والمخبر عنه حسن فيكون نفعا محضا، وعليه جزاءان ، كما فى قول عيسى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦] إلى آخره ، وإن كان الخبر عن أمر قبيح فإن الصدق لا يزيد المخبر عنه قبحا؛ لأنه قد حصل قبيحا سواء أخبر عنه أم لم يخبر ، وكان لقبحه مستحقا أثرا قبيحا مثله ، وينفع الصدق صاحبه مرتكب ذلك القبيح فيناله جزاء الصدق فيخف عنه بعض العقاب بما ازداد من وسائل الإحسان إليه[1] .

سابعا : خشية الله وتقواه :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

[النور] .

ويخش الله : أي: يخافه خوفا مقرونا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: (ويتقه) بترك المحظور؛ لأن التقوى -عند

(١) التحرير والتنوير :٤/ ٣٥٢.

الإطلاق- يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهى عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة – كما فى هذا الموضع – تفسر بتوقى عذاب الله، بترك معاصيه، (فأولئك) الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، (هم الفائزون) بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة[1].

والتقوى أعم من الخشية ، فهى مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة؛ والتحرج من إتيان ما يكره توقيرا لذاته سبحانه ، وإجلالا له ، وحياء منه ، إلى جانب الخوف والخشية.

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، الناجون فى دنياهم وأخراهم ، وعد الله ولن يخلف الله وعده ، وهم للفوز أهل ، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم ، فالطاعة لله ورسوله تقتضى السير على النهج القويم الذى رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة ، وهو بطبيعته يؤدى إلى الفوز فى الدنيا والآخرة ، وخشية الله وتقواه هى الحارس الذى يكفل الاستقامة على النهج ، وإغفال المغريات التى تهتف بهم على جانبيه ، فلا ينحرفون ولا يلتفتون.

وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه ، أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به ، وشعوره بهيبته ، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه ، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هى ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ، ويستعلى عليها

---

(١) تفسير السعدى : ٥٧٢.

ضميره . فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار [١].

ووصف الله جزاء المتقين فى القرآن فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝ ﴾[النبا] ، قال ابن عباس –رحمه الله – متنزها[٢]، في﴿ حَدَآئِقَ﴾ وهى البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، فى الثمار التى تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب؛ لشرفها وكثرتها فى تلك الحدائق، ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس﴿ وَكَوَاعِب﴾ وهي: النواهد اللاتى لم تتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن ونضارتهن ، ﴿ أَتْرَابًا ﴾ اللاتى على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذى هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، فى أعدل سن الشباب ،﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي: كلاما لا فائدة فيه ﴿ وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ أي: إثما، وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه، ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ لهم ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي: بسبب أعمالهم التى وفقهم الله لها، وجعلها ثمنا لجنته ونعيمها[٣].

وقال ﷻ:﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ﴾[الزمر] ، أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، مؤملون كل خير[٤].

---

(١) فى ظلال القرآن : ٥/ ٢٩١.
(٢) تفسير ابن كثير :٨/ ٣٠٨.
(٣) تفسير السعدى : ٩٠٧.
(٤) تفسير ابن كثير :٧/ ١١١.

ثامنا : الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[التوبة] . أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم(١).

اعلم أنه تعالى لما بين أن الموصوفين بالإيمان والهجرة أعظم درجة عند الله بين تعالى أنهم هم الفائزون وهذا للحصر ، والمعنى أنهم هم الفائزون بالدرجة العالية الشريفة المقدسة التى وقعت الإشارة إليها بقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: ٢٢] وهى درجة العندية ، وذلك لأن من آمن بالله وعرفه فقل أن يبقى قلبه ملتفتا إلى الدنيا ، ثم عند هذا يحتال إلى إزالة هذه العقدة عن جوهر الروح، وإزالة حب الدنيا لا يتم له إلا بالتفريق بين النفس وبين لذات الدنيا ، فإذا دام ذلك التفريق وانتقص تعلقه بحب الدنيا ، فهذا التفريق والنقص يحصلان بالهجرة . ثم إنه بعده لا بد من استحقار الدنيا والوقوف على معايبها وصيرورتها فى عين العاقل بحيث يوجب على نفسه تركها ورفضها ، وذلك إنما يتم بالجهاد، لأنه تعريض النفس والمال للهلاك والبوار ، ولولا أنه استحقر الدنيا وإلا لما فعل ذلك(٢).

تاسعا : الولاية بين المؤمنين:

قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ

(١) تفسير السعدى : ٣٣١.
(٢) تفسير الرازى : ٧/ ٤٨٢.

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة] .

لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ فى المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة.

﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل فى أمرهم أنفسهم، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يدخلهم فى رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: قوى قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذى يحمد على ما خلقه وأمر به.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجرى من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التى لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يبغون عنها حولا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها

ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفا فى غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها فى جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿ أَكْبَرُ ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التى أمها العابدون، والنهاية التى سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات [1].

وإذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، أن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض ، فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف ، وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك ، والتعبير القرآنى الدقيق لا يغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء.

إن طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة ، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل ، وطبيعة التضامن ، ولكنه التضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر، وتحقيق الخير

---

(١) تفسير السعدى : ٣٤٣.

ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون ، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفا واحدا ، لا تدخل بينها عوامل الفرقة ، وحيثما وجدت الفرقة فى الجماعة المؤمنة فثمة ولا بدّ عنصر غريب عن طبيعتها ، وعن عقيدتها ، هو الذى يدخل بالفرقة ، ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها ، السمة التى يقررها العليم الخبير!

﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ، يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإعلاء كلمة الله ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة فى الأرض ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الصلة التى تربطهم بالله ، ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله ، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله . وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولا ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح ، رحمة الله فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال بالله ، وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث ، ورحمة الله فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

إن هذه الصفات الأربع فى المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر

وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لتقابل من صفات المنافقين : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف، ونسيان الله وقبض الأيدي[١] .

فائدة من الآية:

السبب فى ذكر لفظ من فى المنافقين : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة : ٦٧] وفى المؤمنين لفظ أولياء :﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] : فهو أن تجمع المنافقين على النفاق إنما هو بسبب التقليد والميل والعادة ، وأما تجمع المؤمنين على الإيمان فهو بسبب المشاركة فى القناعة والاستدلال والتوفيق والهداية[٢].

عاشرا : السبق بالهجرة والنصرة والمتابعة بإحسان :

قال تعالى :﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال الحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤/ ٤٨.

(٢) التفسير المنير :١٠/ ٣٠٨.

أقرأك هذا؟ فقال: أبى بن كعب، فقال: لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الجمعة] ، وفى سورة الحشر: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] وفى الأنفال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٥] إلى آخر الآية ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[1].

وهنا تساؤل : هل المدح فى الآية يتناول جميع الصحابة أم يتناول بعضهم؟

قال قوم : إنه يتناول الذين سبقوا فى الهجرة والنصرة ، وعلى هذا فهو لا يتناول إلا قدماء الصحابة ؛ لأن كلمة (من) تفيد التبعيض .

ومنهم من قال : بل يتناول جميع الصحابة ؛ لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين ، وكلمة (من)فى قوله :﴿ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ليست للتبعيض ، بل للتبيين ، أى: والسابقون الأولون الموصوفون بوصف كونهم مهاجرين وأنصارا ، وكثير من الناس ذهبوا إلى هذا القول ، روى عن حميد بن زياد أنه قال : قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى: ألا تخبرنى عن أصحاب الرسول ﷺ فيما كان بينهم ، وأردت الفتن ، فقال لى : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم، قلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة؟ قال : سبحان الله! ألا تقرأ قوله

(١) تفسير ابن كثير :٤/ ٢٠٣.

تعالى :﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى آخر الآية؟ فأوجب الله لجميع أصحاب النبى ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا شرطه عليهم ، قلت : وما ذاك الشرط؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان فى العمل ، وهو أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدوا بهم فى غير ذلك ، أو يقال : المراد أن يتبعوهم بإحسان فى القول ، وهو ألا يقولوا فيهم سوءا ، وألا يوجهوا الطعن فيما أقدموا عليه ، قال حميد بن زياد : فكأنى ما قرأت هذه الآية قط[1] .

قال سيد قطب -رحمه الله: وهذه الطبقة من المسلمين - بمجموعاتها الثلاث : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ - كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح - كما أسلفنا فى الجزء العاشر فى تقديم السورة ، وكانت هى التى تمسك هذا المجتمع كله فى كل شدة ، وفى كل رخاء كذلك : فابتلاء الرخاء كثيرا ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة!

والسابقون من المهاجرين نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار ، أما الذين اتبعوهم بإحسان - الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعا إبان غزوة تبوك - فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى - وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعا .

وقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار ؟ فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر، وقيل : هم الذين

(١) تفسير الرازى : ٨/ ١٢٩.

صلوا للقبلتين ، وقيل : هم أهل بدر ، وقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية ، وقيل : هم أهل بيعة الرضوان . . . ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذى اعتبرناه أرجح[١].

وهنا يثار تساؤل : هل يشارك سائر المؤمنين الصحابة الكرام فى رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم ؟

قال الشيخ رشيد رضا –رحمه الله – " لا شك فى مشاركة سائر المؤمنين لأولئك الصحابة الكرام فى رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم فى الهجرة إن وجدت أسبابها والجهاد بالأموال والأنفس لنصرة الإسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان ، وفى سائر أعمال البر والإحسان ، وإن الآيات تدل على ذلك فى كل موضع ؛ لأن الجزاء فى حكم الله الحق وشرعه العدل على الأعمال ، وللسابقين فى كل عمل فضيلة السبق والإمامة فى كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذى وجد فيه الإسلام وأقيم بنيانه ، ورفعت أركانه ، ونشرت فى الخافقين أعلامه ، على كل عصر بعده ، وهم الأقلون المقربون كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝ ﴾ [الواقعة] [٢].

والآية دليل على تضامن وتكافل آخر الأمة وأولها وأجيالها ، وعلى وجوب محبة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، وتقدير أخوتهم فى الدين والسبق إلى الإيمان ، والحث على الدعاء لهم بخير ، وعلى صفاء القلوب من أمراض الحقد والحسد لأى مؤمن[٣].

---

(١) فى ظلال القرآن :٤/ ٦٩.

(٢) تفسير المنار :١١/ ١٤.

(٣) التفسير المنير :٢٨/ ٨٧.

وقال ابن تيمية –رحمه الله: " فرضي عن السابقين الأولين رضا مطلقا، ورضي عن التابعين لهم بإحسان"[١].

وقال ابن القيم –رحمه الله – فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصا عرفيا ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل : التابعون مطلقا لذلك القرن فقط وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان وهو ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه الإحسان فى التبعية وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع فى شئ والمخالفة فى غيره ولكن تبعية مصاحبة الإحسان و الباء ها هنا للمصاحبة والإحسان والمتابعة شرط فى حصول رضاء الله عنهم وجناته[٢].

حادى عشر : الوفاء بالبيعة مع الله :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة].

قال الحسن البصرى وقتادة-رحمهما الله : بايعهم والله فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية-رحمه الله : ما من مسلم إلا ولله- عز وجل- فى عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها، فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد،

---

(١) مجموع الفتاوى :٣/ ١٢٦.
(٢) زاد المهاجر :١/ ٥٤.

بالفوز العظيم[١]، الذى لا فوز أكبر منه، ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذى هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشترى من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذى هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأى كتاب رقم، وهى كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق[٢].

إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التى تربط المؤمنين بالله؛ وعن حقيقة البيعة التى أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهى دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة- أن الله - سبحانه - قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء . . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا . . كلا . . إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام . . والثمن : هو الجنة، والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال . . والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد .

فمن بايع على هذا، من أمضى عقد الصفقة، من ارتضى الثمن ووفى، فهو

---

(١) تفسير ابن كثير :٤/ ٢١٨.

(٢) تفسير السعدى : ٣٥٢.

المؤمن . . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة ، كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها فى عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه .

وما يملك المؤمن إلا أن يقول : عونك اللهم! فإن العقد رهيب .

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول الله - ﷺ - فتتحول من فورها فى القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة فى مشاعرهم، كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها ، لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . . هكذا أدركها عبد الله بن رواحة - ﷺ - فى بيعة العقبة الثانية ، قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم» ، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل[1].

لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين؛ انتهى أمرها ، وأمضى

(١) أسباب نزول القرآن : ٩٤.

عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل ، فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار؛ والجنة : ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذى وعد الثمن وعدا قديما فى كل كتبه ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة : ١١١] .

أجل! ومن أوفى بعهده من الله.

وما الذى فات؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله ما فاته شيء ، فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت . سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل الله أم فى سبيل سواه! والجنة كسب ، كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر[١].

وقال الشيخ رشيد رضا – رحمه الله : ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذى لا يتعاظمه فوز ، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك ، الذى لا يعد فوزا إلا بجعله وسيلة لإقامة الحق والعدل . أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين فى سبيله فجعلهم بفضله مالكين معه ، ومبايعين له ، ومستحقين للثمن الذى بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه ، ويروى عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام فى معنى الآية :

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... فليس لها فى الخلق كلهم ثمن

بها أشترى الجنات إن أنا بعتها ... بشيء سواها إن ذلكم غبن

إذا ذهبت نفسى بدنيا أصبتها ... فقد ذهبت منى وقد ذهب الثمن

ويروى عنه أنه قال : ليس **لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها**[٢].

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤/ ٨٦.

(٢) تفسير المنار :١١/ ٤٠.

المبحث الخامس

صور الفوز

أولا : الوقاية من السيئات :

قال تعالى : ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾ [غافر] ، يعنى ومن تق السيئات فى الدنيا فقد رحمته فى يوم القيامة ، ثم قالوا: ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع ، وبأعمال حقيرة ملكا لا تصل العقول إلى كنه جلالته [١].

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ [غافر] وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين[٢].

فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة . فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها .

وكانت هذه هى الرحمة فى ذلك الموقف ، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة :﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . . **فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم**[٣].

---

(١) تفسير الرازى :١٣/ ٣٠٦.
(٢) تفسير ابن كثير :٧/ ١٣٢.
(٣) فى ظلال القرآن :٦/ ٢٥٠.

ثانيا : الزحزحة عن النار ودخول الجنة :

قال تعالى :﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران: ١٨٥] .

أى : فمن نحى عن النار فأبعد منها وأدخل الجنة، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة[١].

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها»[٢] قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه»[٣]، فالأول رعاية حقوق الله ، والثانى محافظة حقوق العباد.

"والزحزحة التنحية والإبعاد ، وهو تكرير الزح ، والزح هو الجذب بعجلة ، وهذا تنبيه على أن الإنسان حينما كان فى الدنيا كأنه كان فى النار ، وما ذاك إلا لكثرة آفاتها وشدة بلياتها ، ولهذا قال ﷺ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٤] .

واعلم أنه لا مقصود للإنسان وراء هذين الأمرين الخلاص عن العذاب ، والوصول إلى الثواب ، فبين تعالى أن من وصل إلى هذين المطلوبين فقد فاز

---

(١) تفسير الطبرى :٧/ ٤٥٢.
(٢) صحيح البخارى ، فضل رباط يوم فى سبيل الله (٣٠١١).
(٣) صحيح مسلم ،وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول(٣٤٣١).
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٥٢٥٦).

بالمقصد الأقصى والغاية التى لا مطلوب بعدها [١].

ولفظ ﴿ زُحْزِحَ ﴾ بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقى ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل فى مجالها! فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ، ويدخل الجنة . . فقد فاز . .

صورة قوية ، بل مشهد حى ، فيه حركة وشد وجذب! وهو كذلك فى حقيقته وفى طبيعته، فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس فى حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هى زحزحتها عن النار! أليس الإنسان - حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة - يظل أبدا مقصرا فى العمل . . إلا أن يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هى الزحزحة عن النار؛ حين يدرك الإنسان فضل الله ، فيزحزحه عن النار [٢].

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقى الشقاء الأبدي، وابتلى بالعذاب السرمدي [٣].

ثالثا : رضوان من الله :

قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة] .

﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿ أَكْبَرُ ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التى أملها

(١) تفسير الرازى : ٥/ ١ .
(٢) فى ظلال القرآن : ٢/ ٢٣.
(٣) تفسير السعدى : ١٥٩.

العابدون، والنهاية التى سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات[١].

كما جاء فى حديث البخارى -رحمه الله- فى كلام الله مع أهل الجنة : عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال:قال النبى ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: يا رب وأى شيء أفضل من ذلك فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» [٢].

(١) تفسير السعدى : ٣٤٣.

(٢) صحيح البخارى ،كلام الرب مع أهل الجنة ، (٦٩٦٤).

obeikandl.com